سقات الماء

في صباحٍ رماديّ، كان الصمت في الأفق هشًّا كأنفاسٍ محبوسة، والهواء يثقل صدر الوطن كأنه يحمل ما لا يُقال. الأرض كانت تئنّ تحت وطأة الدخان والركام، حين دوّى صوت القائد من الجهاز اللاسلكي، لا كأمر عسكري، بل كصرخة خافتة تنوء بالحسرة:

"مجاهد محاصر في بيت منهار... معه شيوخ ونساء وأطفال. آواهم من القصف، احتموا به، لكنّ القناصة رصدوه. المكان مطوّق... أي اقتراب يعني الموت."

لم يكن في النداء أمر، بل وجع مستتر، نداء يستدعي القلوب لا الجنود.

في طرف المقر، جلس شاب في العشرين من عمره، تتّقد عيناه بشرارة لا تخبو. لم يكن الجهاد لديه قرارًا على ورق، بل نداءً استقرّ في جوفه منذ زمن. هو أصغر إخوته، وكان بالإمكان أن يُعفى، أن يظل إلى جوار والدته وبيته، لكنّه اختار أن يكون حيث تُختبر المعاني.

رفع يده بلا تردّد، تطوّع لفكّ الحصار. القائد لم يُجبه على الفور، نظر إليه مطوّلًا... كأنه يزن روحه لا كلماته، ثم أشار له بالمرافقة.

انطلقا في جولة استطلاعية حتى وصلا النقطة الحرجة، حيث يسكن الموت في النوافذ، ويتربّص القنّاصة بالأنفاس. الوضع كان كارثيًّا: لا ماء، لا طعام، لا وسيلة تواصل إلا أنين خافت يتسرّب من خلف الجدران.

عادا، وبدأت العقول تفكّر في خطط إنقاذ مستحيلة، لكن الشاب بدا شاردًا... وكأن فكرة ما تُنبت في رأسه.

وفجأة، نهض. في عينيه لمعة أربكت الجميع.

طلب الخروج، لساعةٍ فقط. اعترض البعض، خافوا عليه، لكنه كان قد حسم أمره، ثم اختفى في الأزقة.

عاد بعد أقل من ساعة، يحمل حبلًا طويلًا ربط في نهايته صفيحة معدنية صدئة، وفي الطرف الآخر حجر ثقيل. لم يشرح، بل صعد إلى سطح مهدّم، وراح ينادي بأعلى صوته عبر الشارع الواسع. كانت محاولته يائسة، لكن الإصرار أقوى.

وبعد محاولات، رأى الحبل يُسحب فجأة.

نجح الاتصال.

ملأ الصفيحة بما تيسّر من الطعام والماء، أغلقها، وأطلقها نحو المبنى المحاصر، تتهادى بين الأنقاض، تتلوّى كأمل صغير يراوغ الموت. الرصاص لاحقها، لكنه كان يراقب بدقة، يرسم خارطة الموت في ذهنه.

وحين تأكد أن المساعدات وصلت، عاد إلى قائده، وقال بهدوء يشبه العاصفة قبل وقوعها:

"غطّوني بنيران كثيفة، سأذهب إليهم."

نظر القائد في وجهه، لم يجد تردّدًا، فقط يقين.

بعد أن بدأ العد إلى ثلاثة انطلق، وانطلقت النيران باتجاه العدو، ثم انطلق هو.

جسده يرقص بين الرصاص، يتحرّك بخفة غزالة تعرف أن خلف كل جدار فوهة بندقية، حتى ابتلعه ركام الحيّ المحاصر.

في الداخل، كانت الحقيقة أكثر فظاعة من الخيال: أجساد منهكة، أعين جافة من البكاء، وجوه شاحبة، وطفلة تمسك برجل عجوز كأنها تتشبث بالحياة ذاتها. الجميع التفّ حول الصفيحة، يلتهمون الطعام وكأنهم في حلم.

لكن عينه كانت تبحث عن رجل واحد... البطل الذي آواهم، حماهم، فصار جزءًا من الجدار.

وفي الزاوية، كان هناك جسد ممدّد... يتلوّى في سكون مريب.

اقترب منه، ركع، رفع رأسه بين يديه، أزاح الغبار الممزوج بالدم...

وتجمّدت اللحظة.

كانت تلك عينا أخيه الأكبر.

تلك العينان اللتان طالما نظرتا إليه بحنان، حين يعود من المدرسة متعبًا، حين ينام بجانبه صغيرًا، حين ودّعه ذات يوم وقال له:

"ابقَ أنت... الجبهة لا تحتاجك."

لكنه لم يبقَ. أخوه سبقه.

امتزجت دموع الشاب بدموع أخيه، وتداخلت الذكريات بصمت الموت. رفع رأسه، وهمس أخوه بصوت بالكاد يُسمع:

"هؤلاء أمانتي... إن قدرتَ، فاحملهم، أو مت دونهم."

سقاه الماء... لكن الماء لم يصل، كما لم يصل يومًا للحسين وأصحابه.

تهاطلت الصور في ذهنه: العباس يحمل القربة، السجاد يرى أباه ممدّدًا بلا معين، زينب تصرخ في وجه الطغاة، والأطفال تحترق في الخيام.

وبكى... بكى كما لم يفعل من قبل، بكى لأنه أدرك معنى المصيبة حين تُقارن بكربلاء.

ثم نهض.

مسح وجهه، وشدّ على سلاحه.

في داخله كان العباس حيًّا، وكان نداء الحسين صدًى لا ينطفئ.

من كان في قلبه حبّ الحسين، لا يُهزم... بل يُبعث حيًّا في كل معركة.